على محمود طـــه

شاعر الفن والجمال

للأستاذ دريني خشبة

١ — عبقريته فى إكمال أغنية الرياح الأربع ٢ — مشخصات أسلوبه ٣ — بعض صور كتبه ٤ — لقب شاعر اللذة

ليس فرحنا بأغنية الرياح الأربع أنها لشاعر مصرى قديم يرجع زمنه إلى أربعة آلاف من السنين ، بل لأنها نظمت بالعربية بعد زمان هذا الشاعر المصرى القديم بأربعة آلاف من السنين ؛ وقد نظمها شاعر مصرى تسلمها منقوصة فسواها كاملة ، وجعل منها آية فنية مشرقة البيان ، حسنة السبك ، فياضة بالحياة التي تملأ جميع جوانبها

فمن المقدمة القصيرة التي وضعها الأستاذ دريتون للأغنية والتي يقول فيها : « تقوم هذه الأغنية على الحوار فبعد أربع مقطوعات تغنى كلا منها فتاة يدخل رجل فيحييهن ويشرع فى خطفهن ليستولى على الرياح الممثلة فيهن ، فيغريهن بإثارة الفضول فى نفوسهن ، وذلك بأن يعرض عليهن زيارة سفينته ... ولما قوبل طلبه بالرفض ، لم يستسلم للهزيمة كما هو واضح من المقطوعة الأخيرة فى الأغنية « إن وسائلى لا تنفد » . ولكن لسوء الحظ لم نعثر على تكملة الأغنية والوسائل التى لجأ إليها الرجل . وأكبر الظن أنها مما يثير الشراهة Gourmandise التى تكشف مواطن الضعف فى النساء » . نستنتج أن الفصل الأول والفصل الأخير من تمثيلية الأستاذ على محمود طه هما من ابتكاره . وأن الفن الرائع الذى لوّن به الفصل الثانى — وهو الفصل الذى تضمن الأغنية المصرية القديمة كلها تقريباً — هو من إنتاج قريحته الخصبة المبدعة . . . أثمره خياله المتجدد ، وسرت فيه بالحياة شاعريته النابضة ، ودوّت فيه موسيقاه بألحان الجمال .

وقد يسأل بعض القراء : وما قيمة هذه الأغنية وماذا تتناوله من مشكلات الحياة ؟ وليس أيسر من الرد على هذا بما ختمنا به مقالنا الأول عنها من أنها سحر وشعر وفن وجمال ... إنها من قبيل هذه الدرامات الرائعة التى نظمها شيكسبير فى صدر حياته . و (العاصفة) هى أقرب أمثلة ذلك ؛ إذ ترتكز على السحر الذى كان يجيده بروسبيرو ، والذى سخر به الريح فأغرقت سفينة ملك نابلى وسلط عليه وعلى أخيه الخائن الروح آريل يسيمها من العذاب ألواناً ، حتى تنتهى الرواية بصلح عام تكون ثمرته زواج ابن ملك نابلى من ابنة بروسبيرو وعودة بروسبيرو إلى ملكه فى ميلان . فالموضوع فى (العاصفة) موضوع شعرى ساحر تجلت فيه عبقرية شيكسبير ، وظهرت فى عرضه وتناوله مواهبه التصويرية العالية . وكذلك موضوع أغنية الرياح الأربع . والعجيب أن تكون هذه أولى روايات على محمود طه المسرحية ويتمها مع ذلك على هذه الصورة الرائعة من الحبكة والحركة والتسلسل والإبداع المتناهى فى التصوير واختيار المناظر الخيالية الراقصة ... هذا فضلاً عن بيانه المشرق وديباجته العالية وقوافيه المنتقاة وقوة تدفقه فى الحوار وحرصه على موسيقية الأوزان ، بل موسيقية الألفاظ . . . فقلما تعثر على لفظة نابية ، أو كلمة قلقة ، أو جملة لم يحسن الشاعر اختيارها وصقلها وتجويدها . . . وأنا متعمد أن أسوق كل هذا الكلام الذى يشبه الأطراء ، بل هو الإطراء نفسه ، لأذكر سببه ... حقاً إن لهذا الإطراء سبباً طريفاً أرى أن أسوقه هنا ، لأن هنا موضعه ....ذلك أننى تعودت كلما فكرت فى الكتابة عن شىء أن أسأل هذا النفر من إخوانى الأدباء الذين أتوسم فيهم إلماماً بالموضوع رأيهم فيما أنا بسبيله منه . وقد سألت هذه المرة كثيرين من إخوانى الشعراء رأيهم فى على محمود طه أولاً ، وفى تمثيليته أغنية الرياح الأربع ثانياً ؛ فعجبت إذ وجدت الغالبية منهم تجمع على مآخذ يأخذونها على هذا الشاعر ، منها أنه مولع بألفاظ وعبارات بعينها يرددها فى الجزء الأكبر من شعره . فمن هذه الألفاظ « شمشع » وما يتفرع منها ، و « عبقرى » وما تصفه من خيال وخمر وموسيقا وجمال ، و « لؤلؤ » وما إليه من لألأ ولألاء ولؤلؤى ، و « تذويب القلب » فى الدموع وفى القبلة وفى النظرة وفى الابتسامة ، و « مَرِح » ، فالمجداف مرح ، والحبيب مرح الأعطاف ، والجيد مَرِح ، والقلب مرح ، والشباب مرِح ؛ و « مُجَنّح » فالخيال مجنح والطيف مجنح والسفين المجنحات ، والريح أجنحة

أى روح خفية أى ريح حملتنا بأجْنُحٍ فى الخفاء ؟

و « سلسل » وما يصرف منها ، ومثلها « ضوّأ » و « ناسم

وبناسم » و « الأصائل المسجدية » و « الخلجان المسحورة » و « حدائق النسيان » و « الكنوز المرصودة » إلى آخر هذا الثبت الطويل من الألفاظ والعبارات التي تركتهم يحصونها ولا يكادون يفرغون منها لكثرتها . وقد كنت أكتب ما يذكرون منها في ورقة بسرعة فائقة ؛ فلما سكتوا سألتهم رأيهم في هذه الكلمات ، أشعر هي ؟ وهل فيها كلها لم يعمل الذوق السليم فيها عمله ؟ وعلام تدل هذه الكثرة العجيبة من تلك الألفاظ والعبارات المنتقاة ؟ أهي دليل فقر في محصول الشاعر الأدبي واللغوي ، أم هي دليل شيء آخر غير الفقر ؟ والمعاني التي تساعد هذه الألفاظ في أدائها ؟ ألغوٌ هيَ ؟ أم هي من أدق المعاني وأحلاها وأكثرها طلاوة ؟ وهل نسينا أن لكل كاتب ولكل شاعر أسلوبه الخاص ، وأن لهذا الأسلوب الخاص مشخصات تشبه علائم الطريق ؛ فهي تميزه وتُعرّف به ... فالدكتور طه حسين مثلاً يلتزم عبارات بعينها يرددها في كل كتبه أو في معظم كتبه ؛ وهو يرددها أكثر مما رددها أي كاتب آخر ، بل لعل معظم الكتاب في مصر وفي العالم العربي لا يرددون من عبارات الدكتور طه حسين شيئاً ، تلك العبارات التي يعرف بها أسلوبه بين مائة أسلوب أو أكثر من ذلك لو أنه وضع بينها .

وكذلك أسلوب الأستاذ العقاد ، ذلك الأسلوب القوي الذي يفيض بفحولة تتعب أفهام القراء أحياناً ، وهو تعب تنتج عنه لذة ذهنية عجيبة إذا استطاع القارىء أن يدرك المعنى الحقيقي الذي يرمي إليه الكاتب الكبير ، فإذا لم يستطع القارىء إدراك هذا المعنى أحس عند تلك الفقرة أو ذلك السطر من كتابة الأستاذ العقاد بمرارة ، لكنه مع ذلك يمضي في القراءة مأخوذاً بالجمال الكلي عن هذه الجزئيات الهينة . وللأستاذ المازني مُشخّصات عجيبة في أسلوبه ، تُميزه من جميع أساليب الكتّاب المصريين والكتاب العرب على حد سواء ، فهو دائماً « يمط بوز » أبطال مقالاته و « يمط شفاههم ! » ، وهو مولع بترديد « حلاق الميت » في جميع كتاباته أو في أكثرها ، وفي قصته الجميلة « إبراهيم الثاني » تردد هذا « الحلاق » أكثر من أربعين أو خمسين مرة كما ترددت هذه العبارات مراراً :

« أي نعم ، ليس إلا ، لا تحمل بالك إلى كذا ، من الحزامة أن تصنع كذا ، الثبات والنبات ، بأمها ، الحب الآخذ بالكليتين ؟ »

ولست أدري كيف يأخذ الحب بالكليتين ، والذي أعرفه هو الحب الذي يأخذ بمجامع القلوب مثلاً . ولأسلوب الأستاذ « المازني » مشخصات أخرى عجيبة سنعود إليها في موضع آخر إن شاء الله

وللدكتور زكي مبارك مشخصات أسلوبية معروفة لقراء هذه المجلة . وقد ظلمه الأستاذ العقاد حين جرد أسلوبه من « مقومات الشخصية » ، ومشخصات أسلوبه أكثرها « أنماط » جامعية .

فهو يكثر من « على التحقيق » و « النص على كذا » ، و « هذا معناه » و « هل يمترى منصف في كذا » و « الحقائق الأدبية » و « في الأثر » و « الوارد هو كيت » ... هذا إلى ما تفيض به مؤلفاته من روح الاعتداد بالنفس والزهو الذي أعجب به من زكي مبارك ولا أعيبه عليه ... ولله ما أظرف ما يجيب به حين يسأل عن هذا فيقول : زمان لا يريد أن ينصفني فلماذا لا أنتصف منه لنفسي !

ولكل من شعرائنا أسلوبه الخاص كذلك ، ولولا خشية الإطالة لضربنا الأمثال الكثيرة لذلك ، وحسبنا أن نشير إلى اشتراك رجلين من أقطاب شعرائنا الشيوخ في فخامة العبارة وقوة النسج وتخير الألفاظ التي تأتي في قصائدهما كأنها خارجة من كَفَّيْ لآَّل ؛ أما هذان فهما الجارم ومحرم ، وإن لم يصعب على الناقد البصير أن يميز كلاً منهما عن الآخر مع اشتراكهما في هذا السبيل .

ومن شعرائنا الشباب عدد كبير يستطيع الناقد كما يستطيع القارىء العادي أن يدل عليهم من أشعارهم وإن لم تحمل أسماءهم ، ومن هؤلاء الشعراء الشباب من أغرم بألفاظ خاصة وعبارات بعينها تشيع في معظم منظوماته ، وهي مع هذا لا تنقص من قيمة شعره شيئاً ، إن لم تكسبه ميزة جديدة فوق ميزاته الكثيرة الرائعة .

(للكلام صلة)

دريني خشبة